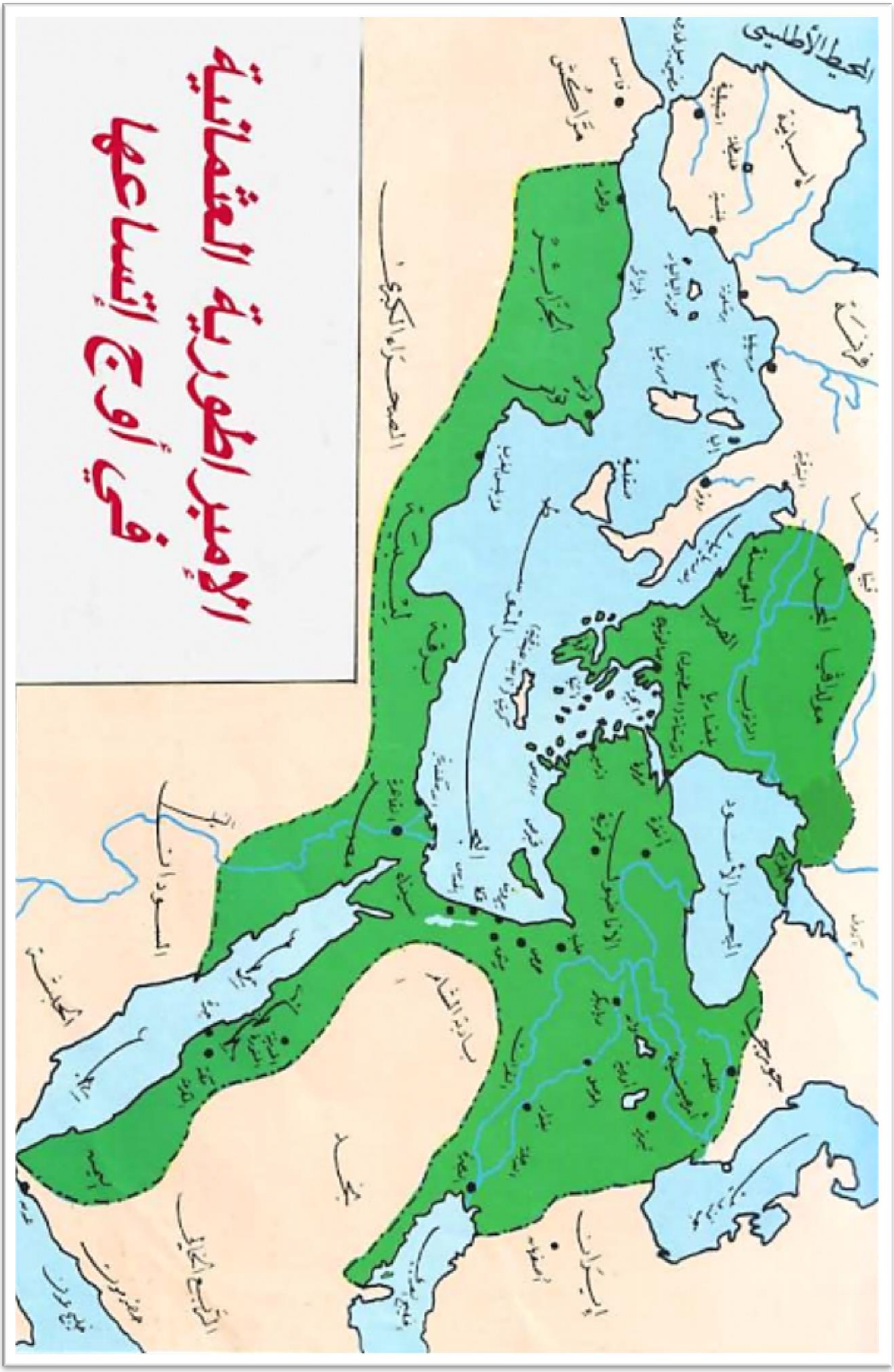
الإمبراطورية العثمانية
في أوج إتساعها

خصائص الحكم العثماني في الوطن العربي

اهتم العثمانيون منذ بدء سيطرتهم على الوطن العربي في القرن السادس عشر والتي استمرت قرابة الاربع قرون بتثبيت دعائم حكمهم وتنظيم الادارة والمجتمع مستندين في ذلك الى مصدريين اساسيين. **اولهما:** النظم التي كانت متبعة في مختلف انحاء الدولة العثمانية. **وثانيهما:** النظم التي كانت سائدة في الاقطار العربية قبل احتلالهم لها والتنظيمات العثمانية في المجالات هما:

١- التنظيم السياسي والاداري: أ- الخليفة ب- السلطان والحكومة ج- الوالي

٢-المؤسسة العسكرية العثمانية: أ- القوات الاقطاعية ب- القوات الانكشارية

أ- النظام السياسي والاداري:

لجأ العثمانيون بعد سيطرتهم على الوطن العربي الى تنظيم الإدارة فيه على شكل وحدات إدارية سميت بالولايات، بلغ عددها في القرن السابع عشر الميلادي (١٤) ولاية عربية من بين (٣٢) ولاية كانت تتألف منها الدولة العثمانية.

لم يحاول العثمانيون في البداية التدخل في حياة السكان طالما حافظوا على ولائهم للحكم العثماني ولهذا يمكن القول ان الحكم العثماني امتاز باللامبالاة وكان هم الوالي المحافظة على وضع ولايته وتوفير أسباب بقائه في الحكم أطول فترة ممكنة.

كان العراق مقسما الى ثلاث ولايات بغداد والبصرة والموصل اما بلاد الشام فقسمت عند استيلاء العثمانيين الى ولاية دمشق وحلب وطرابلس وأعطى للبنان وضع خاص يشرف عليها والي دمشق اما الحجاز فكانت ولاية الحبش التي تضم سواكن وجدة على البحر الأحمر ثم أصبحت تسمى بولاية الحجاز وظلت مصر ولاية واحدة مقسمة الى (٢٤) مديرية، والمغرب العربي مقسم الى ولاية طرابلس وتونس والجزائر اما اليمن فكانت ولاية قائمة بحد ذاتها.

كان السلطان العثماني هو من يعين الولاة وكان معظمهم من الاتراك اما ابرز موظفي الولاية فهو **(الكهية)** وهو نائب الوالي ويليه **(المكتوبجي)** وهو المسؤول عن

تحريرات الولاية و(**الخزنة دار**) وهو امين الصندوق والـ (**الدفتر خانة**) وهو المحاسب وكان هناك قائد الانكشارية والقاضي وقد تحولت الانكشارية نتيجة لضعف الدولة وتوقف الغزو من إرهاب الأعداء الى ارهاب السكان.

❖القوات الانكشارية

وهو النوع الثاني التي اعتمدت عليه الدولة العثمانية في إدارة عملياتها التوسعية وقد ظهرت الحاجة لهذا النوع من القوات بعد ان فقدت القوات الاقطاعية أهميتها وصار من الصعب جدا الاعتماد عليها في أماكن بعيدة.

اختلف المؤرخون في تحديد الزمن الذي ظهرت فيه فرق الانكشارية ومهما تعددت الآراء في هذا المجال يمكن القول بان السلطان (**ادرخان**) هو صاحب فكرة تأسيس الجيش الانكشاري بينما مراد الأول وضع أسس وتنظيمات معقدة للجيش للقوات الانكشارية قائمة على الطاعة المطلقة والانقياد التام للسلطان.

انشأ العثمانيون الجيش الجديد (**يني جري –yeni Geri**) ثم طور بعدئذ وعرف بالانكشارية من الاعداد الكبيرة من الاسرى المسيحيين الذين حصلوا عليها خلال عمليات توسعهم في اوربا فقد كانت العادة المتبعة هي تخصيص خمس الاسرى للدولة وتحويلهم الى جنود يعملون على بناء الإمبراطورية بالإضافة الى ان الدولة كانت ترسل كل خمس سنوات لجانا تطوف مناطق الروم ايلي لانتقاء الأطفال ممن تتراوح أعمارهم بين سن السابعة وسن العاشرة في العاصمة استانبول يتحول الأولاد الى الإسلام ويتلقون دراسات في اللغة التركية والتاريخ الإسلامي العام والتاريخ العثماني، ثم يقسمون الى ثلاث مجموعات وينصرف افراد المجموعة الثالثة وهي اكبر المجموعات للدخول في السلك العسكري ضمن فيالق الانكشارية

وقع الجيش الانكشاري تحت تأثير الطريقة البكتاشية وهي طريقة صوفية باطنية شاعت بين قبائل الاناضول منذ منتصف القرن الثالث عشر وأصبحت هناك علاقة وثيقة بين الانكشارية والبكتاشية.

اعتاد السلاطين العثمانيون بعد احتلالهم الأقاليم تثبيت حامية من الانكشارية في مركز كل ولاية وتكلف القوات الانكشارية كذلك سواء بالعاصمة او في الولاية بوظيفة حماية الامن وجمع الضوابط وكان الاغا الانكشاري وهو بمثابة القائد العام للحامية العسكرية العثمانية في الولاية عضوا في ديوان الولاية وسلطة الوالي عليه محدودة

اخذ الجيش الانكشاري بالتدهور منذ عهد السلطان مراد الثالث (١٥٥٤-١٥٩٦) حين سمح في سنة ١٥٨٢ بدخول عدد كبير من المجندين غير المدربين في صفوفهم بالرغم من معارضة اغا الانكشارية ويبدو ان مراد الثالث كان راغبا في افساد تنظيم الانكشارية بعد ان اصبحوا يلجؤون لاستخدام القوة للتدخل في شؤون الحكم والحصول على المكاسب المادية.

كما استفادوا من ظروف الصراع الذي كان ينشب بين أبناء السلاطين المتنازعين على العرش ليفرضوا نفوذهم على السلطان إضافة لذلك انهم غادروا ثكناتهم ونزلوا الى المجتمع وصار الكثير منهم يشتغل بألوان من النشاط التجاري والصناعي فارتبطوا بالمجتمع وبالتالي ضعف ارتباطهم بالدولة وقل ولائهم للسلطان.

لقد لعب الانكشاريون دورا خطيرا في تاريخ الولايات العثمانية العربية اذ أسهموا في الفتن الداخلية وكثيرا ما نشب القتال بينهم وبين القوات المحلية وأصبحت كتائبهم تثير الفوضى وتلح في طلب الهبات السخية والارزاق الوفيرة وقاسى الأهالي منهم كثيرا وقدموا الشكوى من تعدياتهم وتزايدت اعبائهم المالية حتى انهم كانوا يبيعون تذاكر رواتبهم وتسمى **(علوفات)** وصارت هذه التذاكر تنتقل بالوراثة فبأوائل القرن السادس عشر لم يكن عدد الانكشارية يزيد عن خمسة عشر الف جندي بينما ارتفع العدد ثلاث مرات في القرن السابع عشر.

حاول بعض الولاة الاعتماد على القوات المحلية الا ان الانكشارية ناصبوا تلك القوات العداء لأنها تهدد امتيازاتهم فكان ذلك سببا في وقوع بعض الحوادث الدامية في معظم المدن العثمانية فتاريخ العراق والشام ومصر على سبيل المثال مليء بحوادثهم وظلمهم ورغبة الناس في التخلص منهم ولقد كثرت مشاكلهم منذ نهاية القرن السابع عشر

وحاول بعضا الولاة بالتخلص منهم ووضح حد لهم وتخليص البلاد من شرهم فاستطاع بعضهم تأسيس عصابات حاكمة كما في بغداد والموصل وطرابلس وتونس كما ان القوى المحلية استأثرت بالحكم مثال ال معين في لبنان وال ظاهر العمر في فلسطين وال الجليل في الموصل.

اما في العاصمة استانبول فقد اصبح الانكشاريون يثيرون المتاعب والفتن للسلاطين ويبهظون الدولة بالنفقات وبدأت محاولاتهم المتكررة لغرض سيطرتهم التامة في العاصمة وفرض سيطرتهم على السلاطين فتحولوا الى أداة هزيمة وتخريب واستمروا على ذلك خلال القرن الثامن عشر وكان اخطرها ما حصل في عهد السلطان احمد الثالث (١٧٠٣-١٧٣٠) حين تمكن الانكشارية في ٢٨ أيلول ١٧٠٣ من السيطرة على العاصمة وخلع السلطان واعدام الصدر الأعظم واثنان من معاونيه.

ان التدخل في شؤون الحكم جعل الجيش الانكشاري بعيدا عن ممارسة مهامه الرئيسية في حفظ حدود البلاد وحمايتها من الاخطار المحدقة بها وفي الوقت الذي كان فيه الانكشارية يعبثون بمقدرات السلاطين لحقت بالدولة العثمانية في المجال الخارجي قوات القرن الثامن عشر هزائم خطيرة امام الدول الاوربية مما أدى الى ظهور اتجاه جديد في الدول يدعو الى إيقاف التدهور وهو الاتجاه المعروف بحركة الإصلاحات والتنظيمات العثمانية لقد كان من الطبيعي ان يستهدف الإصلاح في المقام الأول التخلص من الجيش الانكشاري وانشاء جيش يحل محله ولم يتحقق ذل في عهد السلطان محمود الثاني (١٨٠٨-١٨٣٩).

ب- النظام الاقتصادي والاجتماعي:

كان النظام السائد هو نظام الاقطاع ومنحت هذه الاقطاعات الى كبار الموظفين وقادة الجيش وافراد العائلة الحاكمة والمقربين منهم، ومنح حق جمع الضرائب الى اشخاص عرفوا بالملتزمين وكانت مدة الالتزام في الأساس سنة واحدة ويشترط على الملتزم الا يحصل من الضرائب أكثر من النسبة المحددة لكن الملتزمين كانوا يستغلون الفلاحين ويجبون منهم

أكثر من الضرائب المفروضة عليهم مما اساءوا الى اقتصاد الريف بصورة عامة وكلما ضعفت سلطة الدولة قويت سلطة الملتزمين فاحتكر كثير منهم الالتزام لسنوات بل اورثه قسم منهم الى أبنائهم من بعدهم وتمتع اكثرهم بسلطة سياسية مثال ظاهر العمر في فلسطين في القرن الثامن عشر الميلادي.

لقد مارس العثمانيون سياسية افقار شديدة وإدارة مباشرة لمرافق الإنتاج ووسائل المواصلات وكان من ابرز واجبات الإدارة العثمانية تثبيت السلطة وجباية الضرائب من غير ان تقدم الدولة للمواطن اية خدمات فلم تول السلطات العثمانية التعليم اهتماما كبيرا وظلت أنظمة التعليم لا تقوم على اكتساب معلومات جديدة وانما اتقان المعلومات التي ورثها الخلف من السلف وعندما اقترب الحكم العثماني من نهايته لم يكن في المدارس الرسمية الابتدائية سوى عدد ضئيل من التلاميذ فضلا عن ان التعليم في العهد العثماني لم يكن يلائم الحاجات الملحة او مقتضيات التطور واقتصرت الخدمات التعليمية على أبناء المترفين وحرم منها أبناء الشعب عامة.

كما سمحت الحكومة العثمانية لنظام الطوائف الحرفية بالاستمرار فكان ان حافظت الحرف على بقائها وصار الإنتاج الحرفي يواجه منافسة البضائع الأجنبية التي اخذت تتدفق على الولايات العربية نتيجة الاتفاقات التجارية التي عقدت بين الدولة العثمانية والدول الاوربية فسمحت تلك الاتفاقات بدخول راس المالي الأجنبي وغزت الأسواق العربية فأخلت بتجارتها الوطنية ولم يظهر الأثر السيء لهذه الاتفاقات الا بعد ان ضعفت الدولة العثمانية وخاصة في القرن التاسع عشر الميلادي وبموجب تلك الاتفاقات حصل الاوربيون على امتيازات كثيرة ومنها الامتيازات التي منحت الدولة الاوربية حق المحاكمة لرعاياها في الأراضي العثمانية وفق القوانين الاوربية ولقد فسرت فرنسا مثلا هذه الامتيازات بان لها الحق في حماية الكاثوليك في الدولة العثمانية اما بريطانيا فقد ادعت من حقها حماية البروتستانت في حين زعمت روسيا ان من حقها حماية الارثوذوكس وهكذا استخدمت الدولة الاوربية الطائفية سلاحا للتغلغل في البلدان العربية كما استفادت من ذلك في استعداء طائفة ضد أخرى وقد حدث مثل هذا في لبنان سنتي (١٨٤٠-١٨٦٠).

لم يستطيع العثمانيون فهم دور الشعب العربي ولا مركز الوطن العربي الحضاري والاستراتيجي **(السوقي)** فقد عزلوا الولايات العربية من كل نشاط بل وقفوا ضد كل محاولة ترمي الى إعادة الحيوية والنشاط للبلدان العربية تجاريا وثقافيا. وقد اسهم هذا الإهمال في مساعدة الأوربيين على الانقضاض على الوطن العربي خاصة وان اوربا كانت تعيش مرحلة ثانية من ظهور الاستعمار وهي المرحلة الصناعية التي أعقبت الازدهار التجاري نتيجة الاستكشافات التجارية وتحول المجتمع الاقطاعي الى مجتمع تجاري وصناعي وفي هذه المرحلة التي امتدت من أواخر القرن الثامن عشر الميلادي الى أواخر القرن التاسع عشر الميلادي اخذ الاوربيون يبحثون عن المستعمرات تكون مصدرا للمواد الخام وسوقا لبضائعهم المصنعة ولما كان الوطن العربي يزخر بالثروات فقد اصبح محط انظار الدولة الاستعمارية.

❖مقاومة الدول العربية للحكم العثماني

واجهت السياسة العثمانية في الوطن العربي سلسلة من الانتفاضات والثورات المحلية وذلك منذ النصف الثاني من القرن السادس عشر الميلادي وقد ازدادت هذه الانتفاضات حين اخذت الدولة العثمانية بالضعف في القرن الثامن عشر الميلادي فاتسعت قاعدة التحدي وعبر الشعب العربي عن مقاومته للسيطرة العثمانية فوصلت الثورات الى المستويات الشعبية في المدن والارياف وظهرت اسر حاكمة مثل ال العظم في بلاد الشام الى جانب ازدياد نفوذ العشار في اطراف المدن واتسعت الهوة بين العربي والعثمانيين في القرن التاسع عشر.

اتخذت الانتفاضات والثورات العربية اشكالا ومخلفة وشاركت فيها فئات الشعب العربي كلها واظهرت تلك الانتفاضات والثورات التناقض القومي بين العرب والأتراك وكان **العراق** واحدا من اهم المراكز العربية لمقاومة العثمانيين ولعل انتفاضة **(عبد الغني جميل المفتي)** التي نشبت في بغداد ضد السيطرة العثمانية من ابرز تلك الانتفاضات فلقد كان لتدهور أوضاع العراق الاقتصادية والاجتماعية والسياسية عقب سقوط داود باشا سنة ١٨٣١ اخر ولاة المماليك الذين حكموا العراق من عام ١٧٥٠ اثر كبير في حدوث هذه

الانتفاضة والتي كانت استجابة واضحة للتذمر الذي اعم أهالي بغداد لسوء سياسة الوالي علي رضا باشا وجهازه الإداري وتعبيرا عن تمسك العراقيين بالاستقلال النسبي الذي تمتعوا به خلال سنين حكم المماليك ففي ٢٨ أيار سنة ١٨٣٢ خرج جمع غفير من محلة قنبر على وهي محلة التي يقطنها المفتي وانضمت اليه جماعات من المحلات الأخرى وتوجهوا نحو السراي وهي تنوي الهجوم عليه فحدثت معركة حامية بين المتظاهرين والحرس الذين تصدوا للتظاهرة غير ان الوالي استطاع ان يجمع قواته ونجح بتشتيت شمل المتظاهرين وسلط مدافعه على محلة قنبر علي واشعل فيها النيران ونهبت دار المفتي ثم أحرقت مكتبته الثمينة التي يقدر عدد كتبها بنحو سبعة الاف كتابا.

اما **المفتي** فقد التجا الى عشيرة **(العقيل)** القاطنة بجانب الكرخ فامر الوالي علي رضا باشا بطرد العشيرة المذكورة من بغداد فرفضت امره واشتبكت مع قواته بتاريخ ٤ كانون الأول ١٨٣٢.

ولقد استعان والي بغداد **(بالمقيمية)** البريطانية في تسهيل نقل قواته الكثيرة العدد الى جانب الكرخ وافلحت القوات العثمانية في قمع الانتفاضة وعاثت في المنطقة فسادا ونهبا وحرقا وهذه الانتفاضة رغم فشلها لأسباب موضوعية اثبتت حب العراقيين للاستقلال ورفضهم للسيطرة العثمانية.

اما **لبنان** فقد شهد انتفاضات عديدة اشهرها تلك التي وقعت في القرن التاسع عشر الميلادي والمسماة **(بالعاميات)** والعامية هي كل حركة يقوم بها الشعب بالدفاع عن حقوقه من ظالميه ومن هذه العاميات عامية انطلياس ففي سنة ١٧١٩ كتب عبد الله باشا والي عكا الذي فرض سيطرته على بلاد الشام كلها الى الأمير بشير الشهابي **(من حكام منطقة جبيل)** طالبا اليه ان يدفع مبلغا كبيرا من المال خلال شهرين والا يضطر لعزله من امارة جبل لبنان وهنا طلب الأمير من جباة الضرائب جمع الأموال من الشعب بكل الطرق والوسائل وماذا يهم الأمير فقر الشعب وعوزه مادامت القضية بقاءه في الامارة

اما في **دمشق** فقد حدثت ثورة كبيرة سنة ١٧٩٨م ورفض أهالي دمشق دفع الضرائب الى احمد باشا الجزار لكن الباب العالي سرعان ما ادرك نتائج هذه الثورة على مصالحه

فقرر تعيين والي جديد على دمشق ومع ذلك استمرت الانتفاضات وخاصة بجبل عرب ففي سنة ١٨٨٦ م نشبت انتفاضة فلاحية عناك اضطرت السلطات العثمانية على اثرها الى تعيين شبل الأطرش المعروف بصداقته للفلاحين على منطقة جبل العرب كما نشبت انتفاضة أخرى في سنة ١٨٨٩ احتجاج على محاولة السلطات العثمانية تشييد ثكنات عسكرية في السويداء وهو المركز الإداري لجبل العرب، لكن السلطات العثمانية استطاعت ان تقمع هذه الانتفاضة وكانت ظاهرة الانعزال بين الانتفاضات والحركات الثورية العفوية اثر كبير على فشلها وقدرة السلطات العثمانية على قمعها الواحدة تلو الأخرى.

اما في **مصر** فقد نجح احد كبار المماليك سنة ١٧٦٩ وهو علي بيك الكبير من اعلان استقلال مصر وبدا بتأسيس دولة مصرية قوية شملت الحجاز ومصر وتحالف مع الشيخ ظاهر العمر حاكم صفد في فلسطين ولكن العثمانيين حاصروا على بيك الكبير سنة ١٧٧٥ وحاصروه في عكا وقتل بعد ذلك.

كما شهدت بلدان العالم العربي حركات وانتفاضات عربية ففي **تونس** نجح الأهالي في فرض احد الرجال العسكريين حاكما لولايتهم ولقبوه بالباي واضطرت السلطات العثمانية سنة ١٥٩٠ ان تعترف به حاكما وبمرور الزمن زادت سلطة **(البكوات)** وهم مسؤولون عن الإدارة وجمع الضرائب الى درجة تولي السلطة وقد عمد احدهم وهو **(مراد بيك)** في أواسط القرن السابع عشر الميلادي الى جعل الحكم وراثيا بأسرته فنشأت الاسرة **(المرادية)** المتحكمة في البلاد حتى سنة ١٧٠٢ ويعتبر **(حمودة باشا)** اشهر بايات تونس وهو اول باي جند العرب بدلا من الانكشارية في الجيش وحين حاول الانكشاريون بالتمرد عليه استند الى قواته العربية في مواجهتهم مما ساعد ذلك على إقامة توازن داخلي في تونس رغم احتفاظها بعلاقاتها الرسمية مع الدولة العثمانية.

اما **ليبيا** فقد شهدت خلال العهد العثماني الذي بدأت سنة ١٥٥١ سلسلة من الانتفاضات وقد استطاعت احدى الاسر المحلية الوصول الى الحكم وهي الاسرة **(القرمانلية)** التي حكمت من ١٦١١- ١٨٣٥ وبعد توسع نفوذ هذه الاسرة وتزايد خطر محمد علي باشا في مصر اهتمت الدولة العثمانية بإعادة الحكم المباشر الى ليبيا سنة

١٨٣٥ فبدا بذلك العهد العثماني الثاني وهو عهد الولاة الاتراك الذين استمروا حتى الغزو الإيطالي لليبيا سنة ١٩١١م.